

السياق ومقاصد الخطاب

أ. موهوب أحمد
جامعة محمد الصديق بن يحيى، ولاية جيجل.

الملخص باللغة العربية:

السياق من أهم عناصر الخطاب اللغوية، تناوله من حجة علماء البلاغة والأصول، تحت مسّميات دلالية متنوعة كالمقام، ومراعاة المخاطب لمقتضى الحال، ولكل مقام مقال، فالمقام طبقات يختلف المقال فيها حسب اختلاف تلك المقامات وما على المتكلم إلا مراعاتها، وإحراز المنفعة، فلا معنى للكلام بدون غاية وهدف ومنفعة ومن حجة أخرى تناوله المحدثين بصورة أوسع، باعتباره الإطار العام للقول الذي يشمل زمان ومكان القول والعلاقة بين المرسل والمرسل إليه وكل ما يحيط بهما، فمن خلال هذه الثقافات والمرجعيات والمعتقدات، أو زمان ومكان القول، يمكن الوصول إلى الفهم الحقيقي لمقاصد الخطاب، مما كان نوع الخطاب، أدبي أو سياسي أو ديني.

الكلمات المفتاح: السياق، الخطاب، البرغماتية، التواصل، المقاصد.

Résumé :

Le contexte est considéré comme l'un des éléments les plus importants primordiaux de discours linguistique, ce lui la a été étudié par des spécialistes de la rhétorique, ces derniers estiment affirment prennent le postulat suivant : un orateur doit prendre en considération La situation auxquelles il prononce son discours. Car le parler varié selon la diversité des situations pour susciter l'intérêt de discours cependant les modernes abordent le sujet vaguement.

Les Mots Clés : Contexte, Discours, Pragmatique, Communication.

مقدمة:

الخطاب أو النص منتوج لغوي فكري وثقافي، تشاركه وتتفاعل معه أطراف تواصلية أساسية، في إطار زمني ومكاني، وفق خلفيات ومرجعيات مختلفة، تحاط به جملة من العوامل والمؤثرات الداخلية والخارجية تساهم في التأثير على دلالة الخطاب ومعناه، كاللغة وظروف المتخاطبين وحالتهم الشخصية والنفسية والاجتماعية والثقافية، ما يجعله يستوجب لنجاحه توفّر مرسل ومستقبل، وأيضاً إلى لغة مشتركة بينها، ومقام أو سياق يحدده بالمقام مقامات والسياق سياقات والخطاب ألوان، فما على المرسل إلا اختيار الكلمات المناسبة في مقام وسياق يليق بها، لأنّ الكلمات تحمل معنى خارج السياق، كما تحمل من حجة أخرى معاني في سياقات مختلفة، والسياق بدوره منه ما هو لغوي داخلي يتعلّق بالعلاقات الصوتية والصرفية والنحوية، ومنه ما هو خارجي ثقافي واجتماعي وعاطفي.

فالعملية التواصلية تدور في بيئة لغوية وغير لغوية، داخلية وخارجية، هي التي تحدّد نوع الخطاب المستعمل من طرف المرسل، من خلال مراعاة مقتضى الحال، وجعل لكل مقام مقال، وهو المفهوم الذي اهتمت به كثيرا البلاغة العربية قديماً، ومهدت به الطريق إلى الدراسات اللغوية والبلاغية الحديثة (التداولية)، بحيث أصبح السياق من أهم عناصر الخطاب وبدونه يصعب الوصول إلى المعنى الحقيقي للخطاب وفق ما يراه التيار التداولي الحديث.

يحتل المقام أو السياق دوراً مهماً في الأقوال والأفعال التي لا يستقيم فهم مقاصد الخطاب إلا به ولا تتحدّد معاني الكلمات والخطابات بدون تكييف مع المقام، والخطاب مقيد دائماً بالسياق لأنّه يساعد في فك مضمونه بحيث صار من اللازم لعمليات التفسير والتأويل من ضبط السياق كلامياً ومقامياً، وذلك بتحديد ملابساته وأطرافه ومفرداته من السوابق واللاحق تكون في جملتها خادمة للمعنى والإفادة والمقاصد، وبدون السياق تبقى الوحدة اللغوية تحت معاني واحتمالات كثيرة إذا لم تكن مربوطة بقرينة أو أثر دال، والسياق في حاجة إليه كل مفسّر ولغوي في إجراءاته وتطبيقاته نظراً لدور عناصر السياق في إضاءة مضامين الخطاب ورفع غموضه.

يعدّ المتكلم أو المخاطب من أهم عناصر السياق، باعتبار أنّ لكل واحد وهيمته أو طريقته في الكلام بالنظر إلى الخطاب والمكان والزمان والظروف المحيطة به العلنية والخفية، "لأنّ لكل من المتكلم والمتلقي اعتقادات وأعراف مشتركة، تجعل الخطاب ينبع من خلال هذا الاعتقاد والمرجعية المعرفية التي يتم التواصل بها، وهذا الإطار الثقافي يمثل للمتخاطبين مرجعية التفاهم والتواصل"¹ والسياق اللغوي والثقافي هو المعين على فهم عبارات مرتبطة بالحياة الاجتماعية وثقافة المجتمع الدينية والسياسية ... فالتكلم قد يتكلم بطريقة مباشرة أو

غير مباشرة، مما يجعل الخطاب في هذه الحالة يختلف، بحيث نجد الطريقة الأولى تساهم فيه العوامل الخارجية والإشارات أو المؤشرات في زيادة مستوى فهم الخطاب، أما الحالة الثانية تظهر من خلال المفردات والبناء والزمان ... "فشاهدة المتكلم أثناء الكلام الفعلي تعين على فهم الحدث اللغوي بل التعرف على كل صفات المتكلم ذلك أن لكل متحدث معجمه الخاص ومفرداته التي يتألف منها"² فالخاطب ما هو إلا حالة نفسية تحكمه ضوابط وقواعد اجتماعية، يجسدها حسب ما يمتلكه من رصيد لغوي ومعرفي، مع حسن اختيارها وتأليفها بالنظر إلى الموقع أو الحال المتواجد فيه، حتى يصل إلى مراعاة المقاصد لمقتضى الحال.

العنصر الآخر الذي لا يقل أهمية عن المتكلم، يتمثل في المتلقي الذي يوجه إليه الخطاب أو الرسالة من المخاطب وهو الذي يحدد نوع الرسالة، فكلما كان المخاطب مختلفا عن سابقه اختلف الخطاب، لأن الخطاب يختلف حسب اختلاف الموقف الذي يجمع المرسل بالمرسل إليه، "فالمخاطب عنصر من عناصر المقام، وهو اقتضاء الموقف وقد أولاه البلاغيون عناية كبيرة ... مما أسموه مراعاة حال المخاطب وهو المستمع الذي عناه العاني بما صدر عنه مقام ..."³، وقد كانت له عناية أكثر في العصر الحديث، بعد الانتقال من الاهتمام بالمبدع والنص إلى الاهتمام بالقارئ والمتلقي وظهور نظرية القراءة والتلقي.

ثالث عناصر السياق أو المهام هو الخطاب الموجه للمخاطب، بحيث ينبغي أن يكون مناسباً وملائماً للمقام الذي ورد فيه، "لأن الأنماط اللغوية تختلف باختلاف الموضوعات التي تدور حولها ويعبر عنها الحديث ... فمجال الحديث يتصل بالآثار المترتبة على الدور الذي يؤديه المتكلم"⁴، فهو موضوع الخطاب يعكس المقام أو الوضعية أو الحال الموجود فيها كل من المرسل والمرسل إليه سواء تعلق الأمر بجانبه الشكلي أو المضموني، وهنا يكمن دور المرسل في حسن تعامله مع الموضوع والمقام، وكذا الظروف المحيطة به. زاوية النظر إلى السياق ودوره في الوصول إلى المعنى ومقاصد الكلام تختلف من لغوي إلى آخر ومن مرحلة إلى أخرى، حسب الجهة التي تناولت الموضوع، ومدى تأثير وتطور الدراسات البلاغية واللغوية الحديثة، وظهور مدارس وأقطاب لسانية، تطرقت إلى السياق حسب توجهها، فكيف هو المقام في نظر علماء البلاغة قديماً؟ وكيف كانت مهيئة للدراسات اللسانية الحديثة وخاصة منها السياقية أو التداولية؟

1- المقام لدى البلاغيين:

اهتم علماء البلاغة بالمقام أو مقتضى الحال اهتماماً كبيراً، لما يحمله من إفادة في إيصال المعنى وتحقيق غاية التواصل البلاغي، فمعرفة المقام عندهم من شروط فهم العمل التواصل، "فهو يقوم بجمع العملية التواصلية (المتكلم والسماع والرسالة) ويبحث فيها روح التناسق الإيقاعي التواصل، وهو الذي يضمن النجاح التداولي للخطاب، في مقابل النجاح النحوي الدلالي الذي هو مسؤولية البناء"⁵، بل إنه لا يمكننا كما يقول (تمام حسان) "فهم المعنى الدلالي بمجرد النظر إلى معنى المقال دون اعتبار المقام، وهل يمكن بالمقابل فقط أن نفهم المقصود من عبارة: زيارة الأصدقاء تسعد النفس، إننا لا نعرف من هذه العبارة ما إذا كان الأصدقاء زائرين أم مزورين"⁶.

"نجد مفهوم المقام عند البلاغيين تحت ما أسموه بـ (مراعاة المخاطب) وخاصة من حيث طبقته"⁷ فنظروا إليه نظرة سكونية، نمطية، مجردة، ويتضح ذلك في قول أبوهلال العسكري: "وإذا كان موضوع الكلام على الافهام فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على الإفهام، فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس فيخاطب السوقي بكلام السوق والبديوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه فتذهب فائدة الكلام وتعد منفعة الخطاب"⁸.

أدرك علماء اللغة والبلاغة العربية ظاهرة السياق من خلال عبارتهم (مقتضى الحال) التي أنتجت مقولتهم (لكل مقام مقال) وكل كلمة مع صاحبها مقام، فانطلقوا في مباحثهم حول فكرة المقام كما ألحوا على قيمة دراسة كيفية عمل الكلمات دراسة مفصلة، فأصبح معيار الكلام في باب الحسن والقبول بحسب مناسبة الكلام لما يليق بمقتضى الحال والمقام، فنحن أمام مصطلحي (الحال والمقام) المرتبطين بالمقام الذي هو النص أو العبارة أو الخطاب. يترددان في النصوص البلاغية، ثم انتقلا في حقل النحو والنقد، فمن أقدم النصوص البلاغية التي ورد فيها هذان المصطلحان رسالة بشر: "والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضح بأن يكون من معاني العامة وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال"⁹ بحيث لا يمكن تصور كلام يحمل معنى غير قادر على تحقيق المنفعة والصواب، إذا كان هذا الكلام غير موافق للحال ويكون مناسباً للمقام، وبالتالي فالمقام الواجب مراعاته هو السامع من حيث الطبقة التي ينتمي إليها، لأن المقام طبقات، وكل طبقة مقالها الخاص بها، وخطاب

يخاطب بها، يقول (الجاحظ): "ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"¹⁰، ومن هنا يتضح لنا أنّ الجاحظ قابل بين الحال والمقام وطبيعة المقابلة تقتضي طرفين مختلفين فالحال غير المقام، ومن جهة أخرى ربط بين الطبقة والكلام عند معالجة فكري الحال والمقام، فالكلام يرتبط بطبقات السامع، أي مقامه الاجتماعي و"كلا الناس أنفسهم في طبقات"¹¹، كما يرتبط بحاله وقت تلقيه الكلام، فلا بد أن يراعي المتكلّم هذا المقام الاجتماعي بالإضافة إلى مراعاة حال سامعه فيأتي بالمعنى في ما يليق بهما وإيراد ما يقبل عليه، وتجنّبه ما يكرهه وينكره، وما لا يحتمله قلبه ولا يسعه صدره، ولا يليق به قبوله، وهذا ما قصده الجاحظ بأقدار المعاني وأقدار المستمعين وأقدار الحالات وأقدار المقامات، يقول أبو هلال العسكري: "لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوق، لأنّ ذلك جهل بالمقامات، وما يصلح في كل واحد منها من الكلام، وأحسن الذي قال: لكل مقام مقال"¹²، فطبقة السامعين تحدد المعاني والألفاظ التي يستخدمها المتكلّم، "فيخاطب السوقي بكلام السوقه والبدي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب"¹³، فعلماء البلاغة العربية جعلوا من مقام الملوك والسادة يختلف عن مقام البدو والسوقه العامة والأعاجم، فمقام البدو يناسبه وحشي الكلام ومقام السوقه يناسبه الكلام السهل، فجعلوا هذا ميزان يوزن به الكلام البليغ، بحيث لا يخاطب الخاص بكلام العام ولا العام بكلام الخاص وكلما كان الخطاب موجه لغير مقامه أصبح في غير موقعه ومعناه.

ثم بعد ذلك تجاوز علماء البلاغة مرحلة الطبقة في الخطاب، إلى نوع الخطاب الموجه إلى السامع والحال الذي يجمعها، ففي إطار علم المعاني، يرى (السكاكي) أنّ للكلام مقامات، إذ يقول: "لا يخفي عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة، فقام التشكر يبين مقام الشكائية، ومقام التهنية يبين مقام التعزية، ومقام المدح يبين مقام الذم ومقام الترغيب يبين مقام الترهيب ومقام الجدّ في جميع ذلك يبين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغيّر مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغيّر مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغيّر مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى الآخر"¹⁴.

فالمخاطب قبل أن يخاطب السامع ينبغي أن يعمل بالحال الموجود فيه المقام، فلا يستطيع مثلاً أن يخاطبه بكلام التهنية وهو في مقام التعزية، فيكون الكلام في غير محله، فيجب مراعاة حال السامع أثناء الكلام، وكثيراً ما كانوا يستعملون لفظ الحال مردفاً للفظ المقام، "والحال في اصطلاح أهل المعاني هو في الأمر الداعي لدى المتكلّم على وجه الخصوص، أي الداعي إلى أن يعبرّ مع الكلام الذي يؤدي به أصل المعنى خصوصيته، ما هي المسماة بمقتضى الحال مثلاً كون المخاطب منكراً للحكم، حال يقتضي تأكيد الحكم والتأكيد مقتضاها"¹⁵، فستطيع أن نطلق على الكلام أنه حسن إذا انطبق تركيبه على مقتضى الحال، وإذا كان غير منطبق كلامه مع مقتضى الحال فهو كلام قبيح فينبغي للمتكلّم أن يتصفح جيّداً مقتضى الحال أثناء توجيه خطابه في أحوال مختلفة ومتباينة، فحال المخاطب هو مقامه (ابن جني) في باب أن المحذوف إذا دلت عليه الدلالة، كان في حكم الملفوظ به: "من ذلك أن ترى رجلاً قد سدد سهماً نحو الغرض، ثم أرسله، فسمع صوتاً فتقول: القرطاس والله، أي أصاب القرطاس، ف(أصاب) الآن في حكم الملفوظ به البتة، وإن لم يوجد اللفظ، أي غير أنّ دلالة الحال عليه ناب مناب اللفظ"¹⁶.

تجسّدت فكرة المقام عند علماء البلاغة العربية في علم المعاني، وفيه تجلّت قيمته أكثر لما لهذه الفكرة من دور هام في بروز المعنى وإيضاحه، إذا اعتبروه بأنّه: "تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من استحسان وغيره ليحتز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"¹⁷، وقد تخصّص علم المعاني بدراسة أنواع الأساليب اللغوية ومقامات كل منها، كما أنه يعني بالأغراض الفرعية في مقابل الأغراض الأصلية للأساليب العربية (النداء والأمر والنهي والاستفهام) وهي أغراض لا تحددها إلا معرفة المقام التواصل، والسياق الاجتماعي، ولكن لا ينبغي أن يتسع مفهوم المقام عند بعضهم ليشمل مجموعة الاعتبارات والظروف التي تصاحب النشاط اللغوي، ويكون لها تأثيرها في ذلك النشاط من خارجه، بحيث لا تتحدّد دلالة الكلام أو تتجلى مزاياه إلا في ظلّ ارتباطه بها.

المقام وسيلة من وسائل إدراك العلوم كما يرى (أبو حامد الغزالي)، بحيث حصر مدارك العلم في العقلية المحضة والمحسوسات والمشاهدات الباطنية والتجربيات والمتوترات والقرائن المقامية¹⁸ ويقول موضحاً ذلك بمثال أنّ "مجرد الإخبار يجوز أن تورث العلم وإن لم يكن فيه إخبار تشهد الصبي يرتضع مرة بعد مرة فيحصل لنا علم قطعي بوصول اللبن إلى جوفه، وإن لم نشاهد اللبن في الضرع، لأنّه

مستور ولا عند خروجه فإنه مستور بالفم ولكن حركة الصبي في الامتصاص وحركة تدل عليه دلالة ما، مع أنّ ذلك قد يحصل من غير وصول اللين¹⁹ فيأخذ المقام معنى الحجة والبرهان ويصبح من وسائل الإقناع والامتاع، وقد قالوا قديما، ليس من رأى كمن سمع.

فالمقام الحي يؤدي دورا لا يقل أهمية، وهو توحيد الرؤية والاهتمامات وجمعه للثقافات والمشاعر وإعطائه فرصة للتأثر والتأثير وتشريه الفجوة بين القارئ فيه، يقول (أبوهلال العسكري): "وإذا كان القوم في قبيلة واحدة، وفي أرض واحدة، فإنّ خواطرهم تقع متقاربة، كما أنّ أخلاقهم وشبائلهم تكون متضاربة"²⁰، ويؤيد ذلك أنّ المتلقين للخطاب الواحد، في المقام الواحد تكون فهمهم متقاربة على عكس وأن كل واحد منه سمعه في مقام مختلف، ولذلك لا نجد الخطاب في زمن انتاجه إلا معنى واحدا متداولاً، ثم تبدأ التأويلات والتخريجات كلما انفصل عن المقام الأول وهذا ما يظهر في الخطاب القرآني والنصوص الأدبية الشعرية منها والنثرية.

2- المقام لدى المحدثين:

ساهمت جهود القدماء من علماء البلاغة والأصول بتوضيح الرؤى حول موضوع المقام أو السياق بالمفهوم الحديث، فكانت لهم الأسبقية في إبراز دوره للوصول إلى المعنى، يقول (تمام حسان): "إنّ البلاغيين عند اعترافهم بفكرة المقام يتقدمون ألف سنة تقريبا على زمانهم، لأنّ الاعتراف بفكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسيين ومن أسس تحليل المعنى، يعتبر الآن في الغرب في الكشف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة"²¹ لأنّ المقامات والأحوال تختلف والمقالات تختلف تسير وفقها، وما يطلب المقام الأول من الأسلوب والخطاب، يختلف عما يطلبه الثاني والثالث، وإذا قال البلاغيون (مقتضى الحال) فالمعنى هو ما يطلبه أحد الأنماط النوعية للمواقف من رعاية في الكلام، وهكذا يمكن للمرء أن يفكر في الأنواع، ففي المواقف لكل منها مطالب أسلوبية معينة، فينظر من حتمتهم إلى المقام على أساس أنه كان يجب مراعاته، دون الاهتمام بما هو خارج عن السياق اللغوي، من حالة نفسية واجتماعية وثقافية ودينية، ما ينبغي أن يكون فيه الكلام أو المقال، عدم منافاته للقواعد اللغوية بكل مستوياتها ومراعاة حال السامع، لأنّ هذا الأخير هو الذي يحدّد نوع المقام الذي سيوجه إليه، وقد تبه (محمد العمري) إلى أهمية فكرة مراعاة المقام والحال في البلاغة العربية بوصفها عنوانا للعلاقة بين الخطيب والمستمع، فالبلاغيون العرب إن لم يهتموا كثيرا بالدراسة النفسية والأخلاقية للمرسل أو المتلقي حاولوا لأن يدرجوا تحت عنوان المقام والحال ملاحظات كثيرة فيما ينبغي للخطيب أن يكون عليه أو يراعيه من أحوال المستمعين²²، فلا خطاب الجاهل في مقام المثقف، أو خطاب الشاب في مقام الكبير سنا وثقافة وتجربة، لأنّ في المقالات أساليب معبّرة ومقاصد هادفة وأغراض محدّدة، وكلّما خرج المقال عن إطاره أصبح الأسلوب غير معبّر، والمقصد منه يتغيّر وأيضا الغرض ويمكن الانطلاق من فكرة أن المقال يتحدّد وفق المقام لأنّها فكرة تتسم بالدقة والشمول في ضوء نظرية الإبلاغ الأدبي، واللسانيات النفسية والاجتماعية فكل من الاستفهام والإنكار والتوبيخ والتهنئة مقام مختلف، ويختلف عن المقامات الأخرى، وكلها تحتاج إلى مقال يليق بها، حتى لا يغيّر من المعنى شيء، لأنّ الخروج عن إطارها خروج عن المعنى كلما راعى المنتج مقامات الخطاب كان أقوى إلى الإقناع والامتاع، وما المقامات إلا جملة الظروف الحافة بالنص، ولا تواصل ممكن إذا كان الخطاب مجرد تراكم لعبارات لغوية لا ينتظمها جامع مقامي، فبنية العبارات اللغوية تعكس إلى حدّ بعيد المضامين التي تحملها والأغراض التواصلية التي يحقّقها في طبقات مقامية معيّنة²³، فمفهوم المقام اتّسع بسبب ارتباطه بمجالات مختلفة في الشرق والغرب مثل تحليل الخطاب والسميائيات ونظرية أفعال الكلام وعلم النص وعلم التأويل والبلاغة والتداولية.

والملاحظ عند المحدثين أنّهم يستعملون لفظة السياق مرادفة للفظ المقام في أكثر الأحيان رغم أنّ بعضهم يجعل مصطلح السياق متعلّقا بالبناء اللغوي والمقام خاصا بالمؤثرات الواقعية خارج الخطاب، على أنّ كثير منه لا يميّزون بينها، كما يستعملون عبارات أخرى للدلالة على المقام، مثل سياق الحال، الواقع المعيش، الإطار التبليغي... كما ميّزوا بين السياق الاجتماعي والسياسي المقامي فالأول هو مجموع الشروط الاجتماعية التي تسمح بدراسة العلاقات بين السلوكات الاجتماعية والسلوك اللغوي، أمّا السياق المقامي فهو يخص المعطيات التي يشترك فيها كل من المرسل والمرسل إليه حول المقام الثقافي والنفسي والخبرات والمعارف²⁴.

ولقد تعدّدت تعريف المقام واختلفت باختلاف المنطلقات النظرية التي يتبناها كل دارس فيدخل في المقام عند (برنت روبن) اللغة المصاحبة، أو ما وراء اللغة، ومنه: التهنيد والنغمة والدمدمة وسرعة الكلام والوقفات وكلها تساعد على فهم المحتوى (محتوى الرسالة) وإضافة إلى الشفرات غير اللفظية مثل الظهر والحركة واللمس والمكان والزمان²⁵.

يقول (فان دايك): "يتألف السياق البرغماتي من جميع العوامل النفسية والاجتماعية التي تحدّد منهجيا ملائمة الأفعال الكلامية، ومن هذه العوامل المعرفة التي يملكها مستعملوا اللغة، ورغباته أو إرادتهم والأشياء المفضلة لهم وآرائهم، وكذلك علاقاتهم الاجتماعية"²⁶، فالمقام هو الإطار العام للقول الذي يشمل زمان القول ومكانه وهوية الباث والمتلقي وعلاقتها ببعضها البعض، وكل ما يعرفه أحدهما عن الآخر²⁷.

كما يعرفه (تمام حسان) بقوله: "فالذي أقصده بالمقام ليس إطارا ولا قالبا، وإنّما هو جملة الموقف المتحرّك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلّم جزءا منه، كما يعتبر السامع والكلام نفسه، وغير ذلك ممّا له اتصال بالمتكلّم"²⁸ وهو هنا يجعل من المقام العلاقة القائمة بين المتكلّم والسامع والكلام وما يحيط به من فضاء خارجي يساهم في فهم المقاصد وتحديد المعنى.

ونجد (كمال بشر) يسميه بـ (المسرح اللغوي) ويعني به الجو الخارجي الذي يحيط بالكلام من ظروف وملابسات، وتمثل عناصره الأساسية في شخصية كل من المتكلّم والسامع والعلاقة بينهما والمكان وما فيه من شغوص وأشياء²⁹، فعناصر المقام تكون منحصرة بين أطراف التبليغ وترقيات المتكلّم والمستمع، وأدوارهم ويصبح المقام بذلك هو كل المؤثرات خارج النص، التي تشارك في إنتاجه، كما تشارك في استقباله وفهمه، بمعنى أنّ المقام مساهمة المشاركين في الموضوع ومكان التفاعل ومعارفهم اللغوية والصفات اللغوية وغير اللغوية والمعايير الاجتماعية ومقاصد المتكلمين وشخصياتهم التواصلية فيه جوانب ثلاثة، مقام المتكلّم ومقام المتلقي ومقام مشترك بينهما، وهذه المحاور الثلاثة تعمل بشكل متداخل في اتجاه واحد.

كما أنّ المقام بالنسبة للنص أو الخطاب أو الرسالة، ثلاث مراحل، مقام قبل الخطاب، ومقام بعد الخطاب ومقام أثناء الخطاب، وكل مرحلة منها ضرورية للفهم الجيد للنص، وكلما حملت مرحلة إلّا وكان ذلك على حساب فهم السامع وإدراكه، وهذا الأمر يتعلّق بالدرجة الأولى بالخطاب الشفوي المباشر بينا في الخطاب المكتوب والمنقول، فإننا نفقد أجزاء من المقام، سواء باعتبار الطرفين أو الرسالة، ولا يبقى منه إلّا ما حاول السياق اللغوي إثباته، والذي يرقى إلى درجة المقام الحي، إذ هو عملية تعويضية لسدّ النقص الفاضح الذي يتركه فقد المقام التواصلية، ولذلك نجد في النصوص الأدبية خاصة رغبة خفية في إحياء المقام التواصلية عن طريق السياق اللغوي وهذا نجده أيضا في التواصل اليومي بين الناس، ويبقى المقام والسياق أول مبدأ من مبادئ انسجام النص الذي يشكّل من خلال تشابك فضاءات عديدة تؤدي دورا فعالا في تأويل النص، كالمتكلّم والسامع والزمان والمكان³⁰.

والمقام هو تأشيرة المرور إلى الإمتاع والإقناع، ومن ثم الفعل والتغيير، فقد طبّقه الغرب في مناهجهم اللغوية وتحليلاتهم الأدبية، فوصلوا على نتائج في هذا المجال، أحدثت ثورة في طرق التحليل الأدبي، ووضعت مقاييس جديدة لشرح الكلمات وفهمها وقدمت وسائل فنية حديثة لتحديد معاني الكلمات فإضافة إلى ما قدّمه العرب قديما في هذا المجال، يمكن الاستفادة أيضا بالمنهج الغربية وتطبيقها في المناهج اللغوية والبلاغية والنحوية والأدبية والنقدية، حتى يوفرّ معايير ومقاييس نستطيع الحكم بها على النتائج الحقيقية حكما صحيحا، من خلال ما هو عربي قديم وعربي حديث.

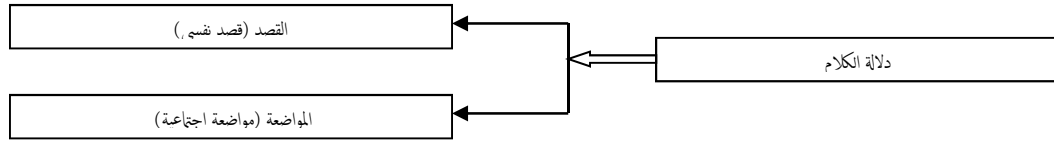
3- مقاصد الخطاب:

مقاصد الخطاب، من المقاصد الهامة في البحث اللغوي، لأنّ اللغة في نظامها التواصلية ما هي إلّا تحقيق لأغراضها ومقاصدها التداولية، وما التجاوزات التي يحدثها المتكلّم إلّا لقصد تداولي وعليه فإنّه لا يمكن خرق نظام اللغة إلّا في الحدود المسموح بها، أي في حدود الجواز، وهوما يدخل في حرية الاختيار في استعمال الأساليب والتراكيب التي يريد الإفصاح عنها المتكلّم لتحديد مقاصده وأغراضه.

القصد والمقصدية من المفاهيم التي نجدها أيضا عند علماء النفس الظاهريين والتداوليين وفلاسفة اللغة وهو ليس إلّا جزءا من اشكالية أعمّ تبحثها فلسفة الفكر، وكل ألوان النشاط العلمي هذه تسعى جاهزة لاستكشاف بواعث الكلام وآلياته النفسية والجسدية، فالمقصدية بما فيها من حالات التميّ والروعة وباعتبارها أفعالا ذهنية، تدفع إلى الاتصال بالآخر ليحصل التواصل الاعلامي والتفاعل.

لا حديث عن الكلام إلّا مع وجود القصد، وعليه فالمتكلّم لا يتكلّم مع غيره إلّا إذا كان لكلامه قصد وهذا القصد محدّد عند المتكلّم ثابت لا يتغيّر، بحيث يتخذ من الوسائل الكلامية والمقامية ما يعيق المخاطب على إدراك ما يريد، لذا يقول (طه عبد الرحمان): "اعلم أنّ دلالة العبارة هي استلزام القول للمعنى من سياقه"³¹، ويعني ذلك أنّ استعمال اللغة منوط بما تعارف عليه أبنائها في ألفاظها وتراكيبها

ودلالاتها وما تقتضيه مقامات الكلام وأعراف الناس وأحكام الشرع، أي أنّ دلالة الكلام لا تتم بقصد المتكلم وحده، وإنّما بتوافق القصد مع المواضعة أو الاصطلاح:



فالقصد والمواضعة من الأركان الأساسية التي تقوم عليها النظرية المقامية العربية عامة ونظرية أفعال الكلام خاصة، وليس بغريب أن يقيم (ابن خلدون) حدّ اللغة عليها بحيث يقول أنّ اللغة في المتعارف عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني، فلا بدّ أن تصير ملكة مقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم وكانت الملكة الحاصلة للعرب ن ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد³²، حيث يعقد ابن خلدون العلاقة بين الوضع واستعمال اللغة للتعبير عن المقاصد مع توفر مبدأ الإفادة في الكلام.

لا ريب أنّ كل فعل يقوم به الانسان لا يأتي إلا لتحقيق هدف معيّن، وعليه فلا يسمى الفعل فعلاً، ما لم يصحبه القصد، والقصد يصحبه إرادة المتكلم، فيؤثر القصد بمعنى إرادة فعل شيء في الحكم على الفعل نفسه، فتصبح الأفعال تابعة للمقاصد الباطنة لدى فاعلها، لا تابعة لشكلها الظاهري.³³

إنّ اكتشاف مقاصد المتكلم ضروري في تحصيل عملية التبليغ والتواصل، فالتلفظ دون قصد عبارة عن فعل تعبيري، إذ قد ينطق المتكلم أصواتاً مركبة من مفردات لغوية ذات معان معجمية وبنى صرفية ومنظمة في تركيب نحوي صحيح، ومع أنّها ذات دلالة في ذاتها، فإنّها لا تنجز فعلاً دون قصد المتكلم.

المقاصد من جهة أخرى هي عبارة عن معان، وما الألفاظ إلا وسيلة لتحصيل المراد والمبتغى والمعنى هو المقصود من الكلام، فالاعتناء بالمعاني من المتكلم هو اعتناء بالمقاصد في حدّ ذاته، غير أنّ المعنى فيه ما هو ظاهر من خلال الألفاظ، وفيه ما هو مضمّر يظهر من خلال إدراك معنى الاستعمال اللغوي وسياقه، وبالتالي فالمعنى الثاني هو الذي يقصده المتكلم من كلامه، القصد مبني على فهم المتلقي لمراد المتكلم عند التداولين، خلافاً لمذهب علماء العربية الذين جعلوا القصد غاية المتكلم³⁴، وهذا انطلاقاً من اعتبار اللغة وسيلة لتحقيق غرض معيّن، وجعل القصد في غاية المتكلم ليس فيما يفهمه المتلقي، وفق عرف اجتماعي ومقتضيات الأحوال ووفق استعمال اللغة في سياق معيّن فاختلاف المقاصد يترتب عليه اختلاف الأساليب والسياقات، ممّا يستدعي هذا تناول مقاصد الاستعمال في سياق معيّن، يظهر من خلاله معنى سياق يغيّر المعنى الظاهر، من هنا تتضح أهمية معرفة مقاصد المتكلم، عند عدم كفاية فهم الخطاب، بمعناه الحرفي فهناك عناصر أخرى تتدخل في فهم هذه المقاصد، تتمثل في السياق بمفهومه التواصل.

4- السياق ومقاصد الخطاب القرآني:

القرآن الكريم نصّ ليس كباقي النصوص اللغوية الأخرى، ودراسة قضية من قضايا البلاغة العربية أو البلاغة الجديدة وإبراز دورها في فهم مقاصد القرآن الكريم، يقتضي البحث والتنقيب على كل نقطة لها علاقة مباشرة وغير مباشرة بالمقام قبل وأثناء وبعد نزول القرآن الكريم، لأنّ كتاب الله عزّ وجلّ نزل بلغة كانت يصنع بها الشعر والنثر والأمثال والحكم والخطب، تميّز بالوضوح والسهولة والإيقان، كما أنّ القرآن الكريم عندما نزل بلغتهم واجه طائفة مقبلة عليه وطائفة رفضته وأنكرته، وبعد نزوله تعدّدت الآراء والمفاهيم والتفسيرات والتأويل، ممّا نجد مقام ثقافي اجتماعي قبل النزول ومقام لغوي وخارجي أثناء النزول وتفسير وتأويل لآياته بعد النزول.

فيمكن النظر إلى المقام أو السياق ودوره في إبراز معناه من عدّة زوايا، الداخلية منها والخارجية فالداخلية من خلال دراسة تطور الدلالات للكلمات والعبارات القرآنية في سياقها الداخلي النصي، كما يمكن تفسير القرآن بالقرآن، وانسجام بنياته الداخلية من خلال تفسير آية بآية أخرى أو حدث مع آخر، وفق تتابع الآيات أو بين السور التي تبيّن أحداث ووقائع تجعلها تخدم وتفسّر بعضها البعض، أو نص ينسخ نصاً آخر، "فالنص (القرآن) يمتاز عن بقية النصوص كونها نصوصاً متداخلة في إطار السورة الواحدة، كما يقدّم نفسه بوصفه

نصا واحدا في إطار السور المتعددة، وإن المعنى ليتعدد في بنائه نموذجا بتعدد النصوص المتداخلة في إطار السورة الواحدة، كما أنه على العكس من ذلك، يترد إلى بؤرة دلالية واحدة في إطار السور المتعددة، هي بؤرة التوحيد³⁵.

أما الخارجية فتتمثل في السياق اللغوي والثقافي والاجتماعي لعصر القرآن ونزوله، من خلال المرجعيات الثقافية والدينية والاجتماعية أو السياسية للعرب قبل الإسلام وأثناء مرحلة النزول التي استمرت أكثر من عشرين عاما في مكة والمدينة. والقرآن الكريم نزل بمقاصد تتفاعل مع هذا السياق الخارجي، فهو عبارة عن وصل بينه وبين سياق الثقافة العربية بمكوناتها المتعددة، أي بين لحظة نزوله وما زامنها من مرجعيات ثقافية ولغوية، فنجدته يتميز بصلته مع عمق وجذور الثقافة العربية. هذا القرآن الذي جاء كص بديل لما كان سائدا عند العرب، جاء لقطع بعض الحقائق والعادات والتقاليد والمعتقدات التي كانت سائدة قبل الإسلام، ويكون مرجعا ثقافيا أصيلا مهيما على المرجعيات والأفكار الأخرى.

القرآن الكريم نزل بلغة العرب، ألفاظا ومعاني، بأساليب نحوية وبلاغية، ففهم القرآن الكريم وبلوغ مقاصده مشروط بالتمكن من لسان العرب والسياق الحقيقي لفهم القرآن الكريم وتفسيره وتأويله، هو سياق عصر نزوله، يقول الشاطبي: "إذا قلنا إن القرآن نزل بلسان العرب، وإنه عربي لا عجمة فيه، فيجمعني أنه نزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها"³⁶ ويقول في موضع آخر: "لا بد في فهم الشريعة من إتباع معهود الأميين وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستر، فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة وإن لم ثم عرف فلا يصح أن يجري في فهمها على ما لا تعرفه، وهذا جار في المعاني والألفاظ"³⁷.

فلا يمكن أن تتوسع دلالات القرآن الكريم خارج الدلالات الممكنة لمعهود العرب من لسانه زمن النزول، لأن اللغة البشرية تتغير وتتطور دلالتها ومعانيها بتغير الزمان والمكان، وهذا النوع من التفسير والتأويل لا نجد لها إلا عند الأوائل من المفسرين.

فرغم كون القرآن الكريم دائم التجدد في معانيه ودلالته، وإن كانت هذه الدلالات غير ما عرف في عصر نزول القرآن الكريم، إلا أن السياق اللغوي العام يقع في دائرة تلك الفترة من لسان العرب ابتداء، أي لغة عرب عصر التخاطب الأول، وإذا كان تجاوز فيكون بما لا يتقصه، فأهمية السياق اللغوي لعصر النزول يكتسب أهمية كبرى متى كان مقصد الخطاب تكليفا موجها لمخاطب محدد قصد أمره أو نهيه أو توبيخه وتحذيره... إضافة إلى ذلك، فالقرآن الكريم نزل بلغة قريش وثقافتهم، مما أهله ليكون على قدر التخاطب الإلهي، فأنزل القرآن فيهم وإليهم، بحيث خاطبها القرآن بشتى ألوان الخطاب تصعيدا وتهديدا ووعدا وجدالا وبيانا ووعدا وتنديدا وفي فترة قبل الإسلام كانت العرب تتميز بنوع من الثقافة والفكر والمعتقدات وخير دليل على ذلك لغتهم التي بلغت مبلغ الإنقان والاتساع والغنى، فأصبحت من أحسن اللغات الإنسانية، سواء في زمن نزول القرآن الكريم أم بعده، مما جعل السياق المعرفي للنص القرآني يأتي بسياق علوم العرب ومعارفهم زمن التنزيل فرغم كونه يتميز بالإعجاز من كل الجوانب اللغوية والعلمية إلا أنه يتميز بالبساطة والسهولة، فهو دين يسر لا دين عسر، وهذا واضح من خلال اللغة السهلة الموجهة لتلك الأمة الأمية، على حسب مقامهم وفتاتهم وأعمارهم، باعتباره دين لعامة الناس، حتى يتمكن كل واحد منهم من فهم معانيه ومقاصده، بالنظر إلى الأفكار الجديدة التي جاء بها خصيصا لهذه الفئة من الناس، التي سارعت بدورها إلى فهم خبايا هذا الكتاب الجديد، لما يحمله من أبعاد إنسانية وأخلاقية، مما جعله كتاب جميع المقامات والسيقات في مختلف الأوقات.

يمكن البحث عن السياق الخارجي عبر أسباب النزول القرآني في مكة والمدينة، في مكة نجد القرآن الكريم مر بمرحلة الدعوة السرية ثم الجهرية، خاطب من آمن من قريش وهم القلة، ومن كفر منهم وهم الكثرة، أما في المدينة تميزت الفترة بوجود مخاطب جديد وهم أهل الكتاب، اليهود أولا والنصارى ثانيا إضافة إلى بداية التحول نحو السولة، انتقال الإسلام من الدعوة إلى الدولة، ما يترتب من وراء ذلك على سياقات تختلف باختلاف الطورين، التي كانت مؤثرة على تشكيل الخطاب القرآني لذلك كان ترتيب آيات القرآن حسب النزول، ومعرفة ترتيب الآيات حسب النزول، وصيورتها التعاقبية له أثر كبير في إدراك ناسخ القرآن من منسوخه، وأيضا الهدف من الترتيب حسب النزول هو التعرف على المسار التكويني للنص القرآني باعتماد مطابقته مع مسار الدعوة المحمدية³⁸.

خاتمة:

القرآن الكريم نص النصوص، لفهمه فهما دقيقا، ينبغي النظر إليه من زوايا مختلفة، وما المقام والسياق إلا زاوية من هذه الزوايا، لا تقل أهمية لفهم مقاصد الخطاب القرآني، شكلا ومضمونا، أي النظم بصورته الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية، من ناحيته الشكلية والسياق الثقافي والاجتماعي من ناحية المضمون، لأن القرآن الكريم نزل متفرقا بلغة ميّزت تلك الفترة، في وضع اجتماعي وعقائدي مختلف مع مرور الزمن بين مكة والمدينة واختلاف أطراف التفاعل والمشاركين مما يستدعي معرفة كل ما يحيط بالخطاب من قالب لغوي، وظروف مختلفة وتأثيرات متنوعة، حتى نصل إلى المقصد الحقيقي للخطاب ومعناه، وهذه الطريقة تنطبق على جميع النصوص الأخرى الأدبية منها والشعرية، فالسياق بمفهومه القديم والحديث يعتبر أمرا ضروريا وجزءا هاما في معرفة مقاصد الخطاب أو النص، لأن هذا الأخير لا ينجز من العدم، وإنما بفعل ظروف معينة محيطة بالمخاطب، تتأثر عليها سلبا وإيجابيا.

الهوامش:

- 1 - نصر حامد أبو زيد، النص، السلطة، الحقيقة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1997م، ص98.
- 2 - تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1998م، ص337.
- 3 - عبد المنعم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، دراسة لغوية نحوية دلالية، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2007م، ص80.
- 4 - محمد بدري عبد الجليل، تصور المقام في البلاغة العربية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دط، 2003م، ص36.
- 5 - فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب التداولي، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2000م، ص257.
- 6 - تمام حسان، الأصول، دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 1982م، ص339.
- 7 - جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب، القاهرة، دط، 2000م، ص27.
- 8 - أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح: علي محمد البداوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1952م، ص33.
- 9 - الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر ومكتبة المثنى، بغداد، ط2، 1960م، ص137.
- 10 - المرجع نفسه، ص، 138، 139.
- 11 - المرجع نفسه، ص144.
- 12 - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص27.
- 13 - المرجع نفسه، ص29.
- 14 - السكاكي أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ص256.
- 15 - التهاوني محمد علي، موسوعة اصطلاحات الفنون والعلوم، تح: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1996م، ص616.
- 16 - القزويني الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: عبد المنعم خفاجي، دار الجبل، بيروت، ط3.
- 17 - المرجع السابق نفسه، ص ن.
- 18 - الغزالي أبو حامد محمد، المستصفى من علم الأصول، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دط، ج1، ص27.
- 19 - المرجع نفسه، ص87.
- 20 - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص230.
- 21 - تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص337.
- 22 - محمد العمري، في بلاغة الخطاب الاتقائي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1986م، ص18.
- 23 - حادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات كلية الآداب، منوبة، ط2، 1994م، ص302.
- 24 - الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1996م، ص58.
- 25 - برنت روبن، الاتصال والسلوك الانساني، تر: نخبة من أعضاء قسم الوسائل وتكنولوجيا التعليم بكلية التربية، جامعة الملك سعود، معهد الدراسات العامة، دط، 1991م، ص159.
- 26 - فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ص70.
- 27 - ألفه يوسف، تعدد المعنى في القرآن، دار سحر للنشر، كلية الآداب، منوبة، تونس، ط1، 2003م، ص59.
- 28 - تمام حسان، الأصول، دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، ص339.
- 29 - كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، دار غريب، القاهرة، مصر، ط3، 1997م، ص96.
- 30 - محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1991م، ص52.

- 31 - طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، البار البيضاء، ط1، 1998م، ص103.
- 32 - عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، دط، دت. ص 603/1.
- 33 - عبد الهادي بن طافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص189.
- 34 - محمود عكاشة، النظرية البرجماتية اللسانية (التداولية)، دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2013م، ص31.
- 35 - عياشي منذر، اللسانيات والدلالة، مركز الانماء الحضاري، حلب، ط1، 1996م، ص97.
- 36 - الشاطبي أبو اسحاق ابراهيم بم موسى، الموافقات في أصول الشريعة، تر: عبد الله درار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص43.
- 37 - المرجع نفسه، ص53.
- 38 - الجابري محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2007م، ص245.